

لعبة البوح والسكوت (الدلالة المضمرة في خطاب النكتة)

The game of disclosure and silence (implicit indication in the speech of the joke)

شهرزاد بوسكاية* المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف_ميلة c.boussoukaia@centre-univ-mila.dz

تاريخ النشر: 2023/06/30

تاريخ القبول: 2023/06/10

تاريخ الاستلام: 2023/01/15

ملخص:

النكتة ليست دائما بتلك البراءة التي تتصورها: إنها تنبني وفق ثنائية الوجه و القناع؛ القناع يحيل على الهزل و التسلية و يحيل الوجه على تعرية الواقع و فضحه. كما أنها تمثل رفضا ومحاولة لتقويض القيم المرفوضة اجتماعيا، و تكريس قيم أخرى ترضاه الجماعة كقيم التفوق، لذا فنحن نضحك عندما نستمع إلى نكتة تعبر عن سلوكيات خرقاء أو بليدة أتى بها الآخرون، فيضحى الضحك حينئذ- كما قال توماس هوبز- "نوع من البهجة المفاجئة التي تنشأ عن ظهور إدراك مفاجئ بوجود نوع من أنواع التفوق والسيطرة في أنفسنا، وبرز ذلك عندما نقارن أنفسنا بنقص الآخرين"، فالنكتة إذن "محاولة قهر القهر وهتاف الصامتين، إنها نزهة في المقهور والمكبوت والمسكوت عنه"، لذا أردنا في هذا المقال معالجة قضية البوح والسكوت في خطاب النكتة.

الكلمات المفتاحية: البوح؛ السكوت؛ الدلالات المضمرة؛ النكتة.

Abstract:

A joke is not always as innocent as we think it is; It is built according to the duality of face and mask; The mask refers to humor and entertainment, and refers the face to revealing and exposing reality. It also represents a rejection and an attempt to undermine socially rejected values, and to devote other values that are acceptable to the group, such as the values of superiority. Therefore, we laugh when we listen to a joke that expresses clumsy or blunt behaviors brought by others, and laughter then becomes - as Thomas Hobbes said - "a kind of sudden joy." Which arises from the emergence of a sudden realization that there is a kind of superiority and control in ourselves, and this emerged when we compare ourselves to the inferiority of others." The joke, then, "is an attempt to conquer oppression and the cheers of the silent ones. And silence in the speech of the joke.

Keywords: Revelation, silence, implicit connotations, humor.

* المؤلف المرسل: شهرزاد بوسكاية، c.boussoukaia@centre-univ-mila.dz

1- مقدمة:

قال الله جلّ ذكره: ﴿وأنه هو أضحك وأبكى وأنه أمات وأحيا﴾، فوضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت وإنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ولا يمنّ على خلقه بالنقص... وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظما ومن مصلحة الطباع كبيرا؟ وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب. ومتى أريد بالمزح النفع وبالضحك الشيء الذي له جُعل الضحك صار المزح جدّا والضحك وقارا" (الجاحظ في تقديمه لكتاب البخلاء).

تنتهي النكتة إلى الأدب الشفهي، وهي جنس أدبي شعبي يقوم على السخرية والتهكم الذي يرمي إلى إثارة الضحك، والنكتة كشكل تعبيرى أدبي شعبي هي موقف و رأي ساخر اتجاه موضوع ما، وبالتالي فهي تريد نقل هذا الموقف إلى الآخرين من أجل كشفه وتعريته وفضح ما به من مفارقات في ثوب ترفيبي فكاها.

ولئن ارتبطت النكتة بالضحك وبالفكاهة، فإنها تتعدى في باطنها مستوى الإمتاع والمؤانسة، لأنها تبطن موقفا ناقدا رافضا لموضوعها، فهي إذن نص يدمر مضمونه شكله؛ وذلك أنه بعد إدراك كنه الموضوع وما يثيره من سخرية وضحك، يتحول كل نص نكتة عند المتلقي إلى خطاب نقدي وصرخة تفجيرية.

إن النكتة في اعتمادها على السخرية إنما تبدي ظاهرا وتخفي مستورا (تبطن مضمرات)؛ إنها نص يمارس لعبة البوح والسكوت فهي تبدي ظاهرا ساخرا وتبطن حقائق درامية، فبالقدر الذي تسليك وتضحكك فهي تضعك في مواجهة تهافتك وهشاشة ذاتك أمام هول الواقع، الذي يشيئ الإنسان ويحيله إلى لعبة في يد قوانين القمع والتسلط، هكذا تتحدد القراءة التأويلية لما تنطوي عليه النكتة من سخرية وضحك؛ إنها تلتحم بفضاء الهزل، لكن لا لتقبع في ابتذاله بل لتؤسس رؤية يدعمها فضح وتعرية للواقع الهش.

1. تعريف النكتة:

تتناسل عن الهزل والسخرية عدة معاني منها: المزاح والتندر والتفكّه والدعابة والظرف والاستهزاء، وكل معنى من هذه المعاني يندرج ضمن جنس أدبي مخصوص؛ كالنادرة والطرفة والدعابة والحكاية الهزلية.

ويزخر التراث الشعبي بكل أنواع الهزل والسخرية منها المسرح الكوميدي والنكتة الشعبية، التي تدار في المجالس والمسامرات، بل وتكاد تتوفر في كل خطاباتنا اليومية، وإنما يرجع ذلك لارتباطها

بعملية إثارة الضحك والترفيه؛ ففي ظل ما يعانيه الإنسان من غبن وضغط يومي، يجد في النكتة متنقّساً، إن على مستوى التسلية (فهي تسلي وتخفف) وإن على مستوى النقد والتنفيس عن المكبوت؛ إذ أنها تفجير لكبت داخلي، واستبطان رمزي رافض، وما الضحك الذي تنطوي عليه إلا تمثيل إغوائي ساخر لما يدور في الأوساط الشعبية.

أ_ التعريف اللغوي:

ورد في (لسان العرب): «نكت الليث: النكت أن تنكت بقضيب في الأرض، فتؤثر بطرفه فيها. وفي الحديث: فجعل ينكت بقضيب: أي يضرب الأرض بطرفه... وفي حديث (عمر رضي الله عنه): دخلت المسجد فإذا الناس يנקتون بالحصى: أي يضربون به الأرض. والنكتة كالنقطة، وفي حديث الجمعة: فإذا فيها نكتة سوداء: أي أثر قليل كالنقطة، شبه الوسخ في المرأة والسيف ونحوها»¹، ويقول (الفراهيدي): «نكت: النكت، أن تنكت بقضيب في الأرض، فتؤثر فيها بطرفه. والنكتة: شبه وقرة في العين وشبه وسخ في المرأة وكل شيء مثله سواد في بياض أو بياض في سواد»². ومن المجاز كذلك» جاء بنكتة وبنكت في كلامه، وقد نكت في قوله، ورجل منك ونكات في الأعراض: طعان»³.

ب. تعريف الاصطلاحي:

أما فيما يتعلق بالجانب الاصطلاحي فقد تعددت التعاريف، إلا أن ثمة إجماع وتقارب في الرؤى فيما يتعلق بكونها شكل من أشكال التعبير الشعبي الهادف، فهي: «موقف ورأي ساخر اتجاه موضوع ما وبالتالي تريد نقل هذا الموقف إلى الآخرين، من أجل كشفه ومعرفة كنهه وما يحتويه من عيوب ومفارقات اجتماعية في ثوب خفيف ترفيهي»⁴، وهذا يعني أن النكتة تعبير معرفي في قالب فكاهي هدفه إخراج الفرد من حال الكآبة إلى حال الانشراح، إنها «نشاط ذهني من نوع خاص»⁵.

ومن هنا جاز لنا القول أنه من العسير ضبط مفهوم موحد للنكتة، شأنها في ذلك شأن مختلف أشكال التعبير الشعبي التي تختلف تعاريفها باختلاف الباحثين و المقاربات، ولكن رغم ذلك فإن الباحثين يتفقون على تعريفها بأنها شكل أدبي شعبي ترفيهي له أصوله ومقوماته سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي المتعلق بالفضاء العام البشري والاجتماعي؛ فهي على هذا النحو نشاط شفهي إرادي يثير الضحك و يبعث على الإمتاع والترفيه .

2_ سوسيلوجيا الضحك والتنكيت:

لا يمكن إغفال رأي العرب وحيهم للضحك والتنكيت، ويكفي أن نقرأ ما كتب حول أخبار الملوك ومجالسهم ومسامراتهم وكذا ملح الشعراء ونواديرهم كنوادر (أبي نواس) وأهاجي (ابن الرومي) الكاريكاتيرية، كما يمكن أن نذكر في هذا السياق مؤلف (ابن الجوزي) حول أخبار الحمقى

والمغفلين و (الإمتاع والمؤانسة للتوحيدى) وغيرها من المؤلفات والنظريات العربية التي تشيد بالضحك، كنظريات (الجاحظ) الذي استطاع بفكره الثاقب أن يصوغ شبه نظرية عن الضحك ووظيفته التعليمية والديداكتية، إذ كان يرى: « في الجد المطلق مبغضة وفي المزاح محبة»⁶، وقد أسهب في مقارنة الضحك بأصداده كالبكاء والجد يقول في فضل الضحك: « ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك، لما قيل للزهرة والحلي والقصر المبني كأنه يضحك ضحكا ... ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمي أولادها بالضحاك وببسام ويطلق وطلق، وقد ضحك النبي ومزح وضحك الصالحون ومزحوا وقالوا هو ضحك السن وبسام العشيات»⁷.

كما أن (الجاحظ) قد اختار الهزل قناة لتمرير مواقفه، حول بعض المحرمات والطابوهات كالجنس والدين، ويمكن اعتبار هزله في هذه المسائل ضربا من الجد، فاستعمال الهزل في هذه المواضع يعفيه من المسؤولية والرقابة، ذلك أن الخطاب الساخر يحمل القليل من المسؤولية بالنسبة للمتكلم ذلك أن محتواه الجاد يمكن إنكاره⁸، تنبع إذن الأهمية السوسيولوجية للنكتة من كونها وليدة المجتمع وملابسات الواقع، فهي نوع من التوبيخ الاجتماعي؛ إذ يدخل في لذة الضحك نية التحقير غير المعترف بها، فعيوب الغير هي ما يضحكننا بسبب عدم تجانسها مع المجتمع لا بسبب عدم أخلاقيتها»⁹.

إن النكتة الحقيقية هي تلك التي تعري السلوك وتفضحه عبر استخدام الكلمات: « فكيف ينكشف الشخص هكذا، لو أنه كان قادرا على رؤية نفسه وعلى محاكمتها؟»¹⁰، إن التعمق في النكتة بطابعها الهزلي الكاريكاتيري، يطلعنا على رغبات المجتمع وعلى طبيعة العلاقات التي تربط الفرد بذاته وبالأخرين وحضورها مبرر؛ فهي حاضرة في البيت وفي الشارع وفي العمل، وحركيتها بين الأفراد تسهم في تقوية الروابط الاجتماعية والإنسانية، إذ تهدف إلى الإمتاع والمؤانسة من خلال موضوعها الساخر ثم التوعية والتحسيس والتوجيه، من خلال الضحك الذي هو قبل كل شيء: « تصحيح وإصلاح وضع من أجل التخجيل فيجب أن يشيع في الشخص المضحك منه إحساسا متعبا. إن المجتمع ينتقم - عن طريق الضحك- للحريات التي أخذت منه»¹¹، وضمن هذا الإطار يمكن قراءة البعد السوسيولوجي للنكتة؛ إنه يؤول إلى سلطة الواقع الثقافي والاجتماعي وما تشيعه من سخرية كونها « فن السطوح وبه تتسطح الأعماق وتهاوى الأعالي وتنهار البدايات وتنفضح الحقائق ويبرز سمو السطوح وعمقها»¹².

3_ المضمّر في خطاب النكتة: (لعبة الوجه والقناع):

إن النكتة كشكل تعبري شعبي هي موقف و أي ساخر اتجاه موضوع ما، وبالتالي تريد نقل هذا الموضوع إلى الآخرين من أجل كشفه ومعرفة كنهه وما يحتويه من مفارقات و عيوب اجتماعية في ثوب ترفيهي، فيتحول كل نص نكتة عند المتلقي إلى خطاب نقدي.¹³ ويتمظهر الهزل والضحك في النكتة عبر مستويات متباينة؛ فقد يكون خطاب النكتة سلاحا للهجوم الساخر وقد يكون ستارا يخفي هزيمة الإنسان، و ينتقد السلوكات التي تتعارض مع القيم الدينية والأخلاقية أو بالأحرى تلك السلوكات التي ترفضها (الأنا)، صحيح أننا نضحك عندما نستمتع إلى نكتة تسخر من سلوكات خرقاء أو بليدة أتى بها الآخرون، لكننا في عمق أنفسنا إنما نشعر بالتفوق على (الآخر)، وتغير النكتة بذلك مسارها من نص ترفيهي إلى نص هادف و فاعل وهنا يضحي الضحك ستارا لمواجهة الآخر و المجتمع و حتى السلطة، سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو دينية، لأن السلطة قوة كامنة لا تكتفي بممارسة الفعل القهري جهرة، بل قد تتعداه إلى التلبس بتمظهراته الممكنة الأخرى، من قبيل تحويل نهجها المتغطرس نحو المجال الرمزي.

يشتغل خطاب النكتة على آلية المفارقة، من خلال اعتمادها على السخرية المبطنّة، والمقصود بالمفارقة « قدرة النص على احتواء المتناقضات، ليغدو من خلالها حيزا دراميا تنفس مكوناته الخصوصية الإشكالية: «يطرح ظاهرا ويخفي مستورا، يقول متعارفا ويبطن مضمورا»¹⁴، على نحو يضحي معه النص خطابا إشكاليا. لذا تجدر الإشارة إلى أهمية تجاوز البعد السطحي للنكتة «المبتور من كل رؤية معرفية تأخذ في اعتبارها قدرة الفضاء الساخر على الانطواء على تناقضاته»¹⁵.

وتبطن النكتة مسكوتا عنه ومخزونا هائلا من الدلالات المشفرة؛ « وربما أدارت المفارقة ظهورها لعالمنا الواقعي وقلبته رأسا على عقب»¹⁶، على نحو يعري الواقع ويفضحه، ويكشف ما به من تناقضات وزيف لأن النكتة موقف ورأي ساخر اتجاه موضوع ما من أجل كشفه، وتعرية ما يحتويه من مفارقات في قالب ترفيهي، و من هنا جاز لنا أن نقول أن النكتة تخفي «جدية مأكرة على المستوى المضمّر والعميق»¹⁷ فالنكتة على هذا النحو ليست بتلك البراءة التي نتصورها، وإنما هي استبطانات رمزية لحقائق مهولة- ربما- ما كنا لنلتفت إليها و ندرك حقيقتها لولا أنها قد شاعت بواسطة الخطاب التنكيّتي.

وكثيرا ما تبطن النكتة صراعا بين المركز والهامش: « بوصفه يمثل الوجه الحقيقي، أو لنقل الخفي لقناع الفكاهة الظاهر والجلي، في أفق إعادة توزيع تمظهرات السلطة رمزيا ولغويا داخل النسيج الاجتماعي»¹⁸؛ فالطابع العدواني الساخر حيال جنس أو عرق معين بالنيل منه والخط من شأنه، في مقابل تعظيم وتبجيل جنس آخر بوصفه المركز الذي يمارس نزعة الهيمنة ضد الهامش،

باعتباره ضحية التنكيت¹⁹، يكشف عن صراع مستديم في المنظومة القيمية وعن شيوع ثنائيات ضدية تنتصر للمركز؛ كتلك النكت التي تسخر من (الصعيدي) في مصر ومن (المعسكري) في الجزائر، أو تلك التي تسخر من سكان الأرياف بوصفهم متخلفين، وربما متوحشين في مقابل سكان المدن المتطورين والمتحضرين.

وكثيرا ما اتخذ الاستعمار النكتة وسيلة لخلق عداوات، من شأنها إضرام العنصرية بين فئات المجتمعات المحتلة، كسعيه مثلا لخلق عداوات بين (الشاوي والقبائلي) في الجزائر؛ لسبب بسيط هو أن (الشاوي) الذي يتمركز حول جبال الأوراس (شرقي الجزائر) قد قاوم الاستعمار وكان عصيا، وظهرت نكت مثل: (قبائلي يمر على مقبرة، ممتطيا حماره فيتوقف، وعوض أن يقول يرحمكم الله يا أهل المقبرة يقول لهم: إذا كنتم قبائل يُقبَلُكم

آربي، و إن كنتم شاوية يُشويكم آربي، و إن كنتم عربا أرا...أرا...-) يعني أنه ينكز حماره بما معناه دعنا نذهب لأن ما سوف أقوله في حقهم لا ينتهي؛ هذه النكتة أشاعها الاستعمار باعتباره (المركز-) ضد الشعب الجزائري (-الهامش-)، وهي على لسان (الشاوي) القوي والمقاوم للاحتلال والذي تربطه علاقات طيبة مع العربي الذي يدخل معه دائرة المركز، بالمقارنة مع (القبائلي) الذي ينحدر لدركة الهامش، فاتخذت «لبوس الضحك دثارا لتمرير خطاباتهما، بمختلف تلويناتها وأشكالها من قبيل فضح الصراع من أجل الهيمنة المسلط على الهامش من طرف المركز»²⁰.

وهي تبثّر لموقف يعلي من نفسه، ويحطّ من الآخر؛ «إنه نوع من الترميز الفكري، يوحي بأن سلطة المركز قوة كامنة لا تكتفي بممارسة الفعل القهري، وإنما تتلبس بتمظهراته رغبة في تحويل نهجها المتغطرس نحو المجال الرمزي»²¹، وكما يتعالى (المركز) ويصدر نكتا ضد (الهامش)، يصدر (الهامش) أيضا نكتا لتدجين سلطة (المركز) متحايلا بذلك على أنساق تهميشه، مما يعني أن خطابا مسكوتا عنه قد غيّب وأقصى؛ إن هذا الإقصاء والتغيب قد أوجد تمثيلات رمزية على سبيل النكتة باعتبارها الشكل الفني للسخرية والبناء المعماري للنقد الرافض لكل أشكال الظلم والسيطرة.

ويمكن أن ندرج في هذا السياق تلك النكت التي تصدر في حق القادة والرؤساء والساسة للنيل منهم رمزيا، لكي تثبت العامة لنفسها أن هؤلاء الأقوياء ليسوا آلهة ولا أنصاف آلهة، وأنهم ليسوا بتلك القداسة التي نتصورها، وإنما هم أشخاص عاديون يتعرون وينهزمون ويضعفون مثلهم تماما، بل وتصدر عنهم سلوكات خرقاء، تدل على غبائهم وجهلهم؛ ومن ذلك أن أحد الرؤساء ضرب ابنه لأنه قال له أنت أمي، ظنا منه أن ابنه لا يفرق بينه وبين والدته في حين كان الولد يقصد أن

أباه جاهل. أو قول أحد الضباط لصديقه أن مدير مكتبه غبي، وعندما سأله صديقه كيف ذلك قال له سأثبت لك الأمر، فنادى مدير مكتبه وطلب منه أن يذهب للبيت ليتأكد ما إن كان موجودا أو لا، فذهب المدير إلى البيت ليرجع إلى الضابط ويقول له لم أجدك في البيت يا سيدي، فيقول الضابط لصديقه: رأيته؟ كان بإمكانه أن يسأل عني في الهاتف بدل القيام بكل هذا المشوار، في هذه الحالة تضحي النكتة وسيلة للمقاومة الثقافية وخرق المحظور وتجاوز الطابوهات، ومن هنا جاز لنا القول مع (هنري برجسون) أن النكتة «هي محاولة قهر القهر وهتاف الصامتين، إنها نزهة في المقهور والمسكوت عنه»²².

وتظهر النكتة في تجلٍ آخر، بوصفها وسيلة للمقاومة الثقافية، تستهدف الآخر بوصفه يقابل الأنا ويضاده؛ فالذات تصور الآخر وتمثله تنكيتا، ملتزمة كل السبل التي تقرّبها منه، ولكن دون أن تلتحم به وهذه الصور صادرة غالبا عن أنظمة متمركزة، تسعى للحفاظ على مركزها التفوق الاستعلائي.

وتشكل النكت الاجتماعية مخزونا ثريا، يمكن العودة إليه لاستجلاء الصور التي تصنع الآخر والذات معا، وتكشف ذلك التواطؤ بين الثقافي والأدبي؛ فالثقافة تمتلك أنساقها الخاصة والمهيمنة وتتوسل هذه الهيمنة عبر التخفي خلف أقنعة سميكة، وأهم هذه الأقنعة وأخطرها هو قناع الجمالية البلاغي²³.

وبتتبعنا لبعض أشكال النكت الاجتماعية، تبدى لنا حالة التبخيس والتحقير التي تلحق بالآخر الموسوم بصورة مشوّشة ومشوّهة؛ إننا نصادف نكتا كثيرة يتجلى فيها الصراع الطبقي أو الديني، أو بين الجنسين؛ (المرأة والرجل)، وأخرى يحتدم فيها الصراع بين (البدو والحضر) وبين (العربي والغربي): «وكل هذه النكات يؤكد ناقلوها على انتمائهم، مقوين تضامتهم وتلاحمهم خلال مديح الذات الجمعية والسخرية من الجماعات الأخرى، خاصة تلك التي ينافسونها وبالأخص التي يتناحرون معها»²⁴. ومن بين هذه النكت التي تتخذ الغربي موضوعا لها، بوصفه متطور تكنولوجيا أمام العربي المتخلف؛ أن فرنسا اصطحب معه عربيا لفرنسا كي يطلعه على درجة التقدم الذي بلغته فرنسا منذ القدم فشرعا في الحفر حتى تحصلا على حفرة، تبدى من تحتها أسلاكها، فقال الفرنسي انظر إنها أسلاك الأنترنت لتعرف أننا امتلكناه منذ قديم الزمان. ثم اصطحبه العربي إلى بلده واستمر في الحفر لمدة شهرين فلم يعثرا على شيء، فقال العربي لكي تعلم أننا سبقناكم في التقدم لأننا كنا منذ القدم نمتلك (الويفي). في هذا المثال تمارس الذات نوعا من التحايل لإخفاء نقصها وتدنيها أمام فوقية الآخر وكماله، لتضحي النكتة وسيلة للتداوي، وإيهام النفس بالتفوق أو

على الأقل» بالنديّة تجاه الأقوام الأخرى، وإلا صار الكيان الجماعي المعني عرضة للانحياز من الداخل»²⁵، وهنا تمارس الذات مقاومة ثقافية.

وهناك نكت تعكس تحيزاً فاضحاً تمارسه الذات لتقديس نفسها والحط من الآخر، استناداً إلى آلية مزدوجة الفاعلية، تأخذ شكلين؛ الأول يخص الذات، إذ تنتج النكته ذاتاً نقية وحيوية، متعالية وفعالة لا يصدر عنها إلا الصواب المطلق والقيم الرفيعة، والثاني يخص آخراً يشوبه الالتباس²⁶، ويعتريه النقص والخلل، فيتبدى حينئذ ملمح التحقير والدونية، ولا أدلّ على ذلك من تلك النكت التي تتصارع فيها ثنائيي الرجل والمرأة؛ كتلك التي تصف ثروتها وكلامها الكثير، ومنها أن المرأة عندما تغضب تتحدث لمدة ست ساعات متتالية وبسرعة الضوء، وعندما تنتهي تضع رجلاً على رجل وتقول "خليني ساكنة أحسن". أو تلك التي تحصي فوائد الزوجة النكدية وتصفها بأنها: تجعل لسان الزوج رطباً بذكر الله، طوال اليوم يقول حسبي الله و نعم الوكيل، تساعد على غض البصر، لأنه سيكره كل النساء، تساعد على صلة الرحم لأنه سيكون أغلب الوقت في بيت أهله، تساعد في الحفاظ على وزنه، لأنه سيفقد الشهية إلى الأكل، وسيكون ناجحاً في عمله متمسكاً بالقيم العليا، لأنه سيقضي وقتاً أطول في العمل. تكشف هذه النكت وغيرها من النكت المسلطة على المرأة عن دلالة تحقيرية، مما يوحي أن المرأة بضعفها تكون عرضة للنقد والتبخيس كنوع من الوأد الرمزي.

بالرغم من أن الإسلام قد أنهى الوأد كممارسة إلا أنه قد استمر في اللاوعي الجمعي، وذلك بممارسة العنف الرمزي ضدها، فيمسي جنس النساء كله خاضعاً لفوقية ذكورية، تمتن فعل التحقير حيث يعلو الخطاب الذكوري المسيطر فتمسي المرأة حاضرة كموضوع غائبة كذات؛ فهي في هذا النوع من النكت نادراً ما تكون المتكلمة، بل متكلمة عنها، من قبل رجل يحاول إعلاء سلطته وسطوته، فتكون النكته بذلك قد منحت الاستمرارية لدلالة تنتمي لنسق ثقافي كان قد تشكل منذ أجيال وتغلغل بصمت في «أعماق الخطابات ينتقل ما بين اللغة والذهن البشري، فاعلا أفعاله من دون رقيب نقدي... لقدرة العناصر النسقية على الكمون والاختفاء»²⁷.

كما تكشف النكت عن دلالة تحقيرية أخرى ضد المرأة، تنال منها وتلحق بها صفات دنيئة، كالمكر والغدر والحيلة؛ فهي مصدر الغواية والشروع، أما الرجال فأشباه ملائكة، ومن ذلك النكت التي تفصل في أسباب التسميات التي تطلق على المرأة، في مقابل تلك التي تطلق على الرجل؛ الأصل في هذه التسمية: (نساء) لأنهم ينسون المعروف، (حريم) لأنهن يحرمن الرجل حريته، (مرأة) لأنها تفقع

مرارة الرجل. أما أسماء الرجال: (ذكور) لأنهم ذكرى جميلة في حياة المرأة، (شباب) لأنهم يشيرون على الإخلاص والوفاء، (رجال) لأنهم يرتجلون الكلام الجميل للمرأة.

وشاعت في أيامنا هذه نكت كثيرة حول كيد النساء، وغالبا ما تقترن هذه النكت بذكر الشيطان؛ إذ تذكر النكتة في الأخير أن إبليس قد اعترف بأن المرأة تفوقه كيدا، أو أنه قد اعترف بهزيمته أمامها، أو أنه قد دخل مستشفى المجانين؛ و منها أن رجلا قال لزوجته أمركن عجيب تستغرقن ثلاث ساعات في إعداد ورق العنب لنأتي نحن وتتناوله في بضع دقائق، قالت تماما مثلما يستغرق منكم جمع الراتب شهرا كاملا فنأتي نحن لنصرفه في بضع دقائق عندما ننزل السوق. المهم أن إبليس مازال إلى اليوم يصفق لها.

وتقول نكتة أخرى، أن امرأة علمت بخيانة زوجها لها فأخذت سيارته ليلا و ذهبت أمام الرادار وسجلت له مئة مخالفة. المهم أن إبليس مازال مصدوما.

وهناك نكت كثيرة معنونة بـ (إبليس) و كلها تقرّ بتفوق المرأة على إبليس منها؛ إذا غضبت منك امرأة وبقيت صامتة فليس ذلك دليلا على ضعفها، بل هي تتناقش مع إبليس على خطة للقضاء عليك وإبليس يحاول تهدئتها.

كل هذه الأمثلة تعكس تحاملا صارخا ضد المرأة، وتستمدّ سلطتها من حكم قديم ينتهي لنسق ثقافي يستمد مشروعيتها من المقدّس الديني، ففوة النسق الثقافي في المشروع التي يتصنعها من خلال التخفي وراء رؤى جديدة تصنع استمرارية أحكامه وتتمتع بالتقديس، مثل هذه النكت التي وجدت مبرّرا لها في النص القرآني؛ قال سبحانه و تعالى ﴿قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾²⁸ (سورة يوسف، الآية 28)، ومرد هذا الربط بين (المرأة وإبليس) يحيلنا على تاريخ البشر الأثري في قصة الوجود الأولى؛ قصة (آدم وحواء) في مشهد التفاحة فهي: «حالة مغروسة في اللاوعي الجمعي، وتتيقظ انفعالاتها في كل موقف تتشابه ظروفه مع ظروف التجربة الأولى»²⁹، فبالرغم من كون القرآن قد حمّلها المسؤولية معا، إلا أن المخيال الشعبي قد حمّل (حواء) المسؤولية كلها. ومن هنا جاز لنا القول أن موضوع المرأة في النكت ما هو إلا رمز لسطوة النسق الذكوري، الذي يمارس نظرة التوضيع ويستحضر شرور المرأة وغوايتها وكيدها.

ولعلّ أهم الدراسات العلمية التي أجريت حول النكتة، تلك التي قام بها (سيغموند فرويد) لا لشيء إلا لأنه حفر في خبايا النكتة و استبطن مضمراتها النفسية، إذ يرى أنها آلية نفسية دفاعية لمواجهة العالم الخارجي المهدد للذات.³⁰ و بهذا تضحى النكتة نوع من القول يعمل على تحويل حالة الضيق إلى حالة من الشعور الخاص بالمتعة أو اللذة، وقد عمد (فرويد) إلى تقسيم النكتة حسب

مقصديتها إلى قسمين هما: نكتة مغرضة ترمي إلى إشباع الميول والنزعات الجنسية و العدوانية المرتبطة بالحياة النفسية، والهدف المرجو من هذا النوع من النكت هو الهجاء والهجوم أو الدفاع ويمكن اعتبارها سخرية و تشهيرا بالخصم ولكن بشكل غير مباشر وغير صريح. ونكتة بريئة غير مغرضة تتغيى التلاعب بالألفاظ ولا تحمل أي شحنة عدائية، لذلك تكاد وظيفتها تكون محض تسلية لغوية.³¹ ويرى فرويد أن النكت مثل الأحلام لها علاقة بالذكريات اللاشعورية، و تركز نظريته حول الفكاهة على نظريته حول الهوية و الأنا الأعلى؛ فالأنا الأعلى هو ما يسمح للأنا بتوليد الفكاهة.

و لعلنا لا نعدو الصواب لو قلنا أن أي نكتة تنبني أساسا على شفرة لا بد من انتهاكها و اختراقها لبلوغ النقطة الحاسمة التي تنتهي إليها النكتة من أجل تمرير مكائدها، لذا فلا بد من خلفية ثقافية كي نستطيع الإلمام بالفعل الفكاهي، ذلك أن النكتة تتضمن في باطنها إشارات ثقافية و حضارية يتعذر فهمها خارج سياقها الثقافي، و هذا ما ينعت ب: "التوطين الثقافي للنكتة"³²، إذ لا يمكن أن نستشعر ما يبطنه هذا الخطاب الحبرائي الذي: "يتأسس على خلفية إبراز الخفي و إخفاء البارز، و ذلك باعتماد آلة حرب جهنمية تتوارى بعيدا عن الأنظار خلف قناع الإيجاز المتلبس و الضحك الملعز أثناء رحلة المرور بين الوجه و القناع"،³³ ما لم نحفر في العمق الأنثربولوجي- التاريخي- الكفيل بتمكيننا من تجاوز براءة الوجه إلى ملامسة حقيقة الوجه بكل تضاريسه و نتوءاته. إن هذا الالتباس الدلالي هو الذي دفع (الشريف الجرجاني) إلى القول: " النكتة مسألة لطيفة أخرجت بدقة نظر و إمعان فكر... و سميت المسألة الدقيقة نكتة لتأثر الخواطر في استبطانها"³⁴

لقد بات لزاما أن نقر أن النكتة تشكل واحدا من أخطر الأجناس الأدبية الشعبية، التي تساعدنا في الحفر عميقا في تشكل ذهنيتنا الجماعية، بعيدا عن الوثوقيات الجاهزة والأفكار الشائعة، وهي واحدة من تمظهرات الإبداع الشفهي الأثيرة التي من شأنها بناء التراتيبات الاجتماعية³⁵.

خاتمة:

إذا علمنا أن النسق المضمر هو نص غير معلن، يتوارى خلف أقنعة جمالية ليبوح بما يسكت عنه ظاهر النص، أضحت الملفوظات الهزلية بما فيها النكتة حوامل لحقائق مهولة، ما كنا لندركها لولا إخضاعها للمساءلة الثقافية والقراءة التأويلية الفاحصة، للكشف عن حيل الثقافة في تمرير أنساقها ومخاتلة السلطة عبر التخفي خلف قناع الهزل والضحك، ومن ثمة فإن النكتة:

- تضرر أبعادا ومضامين تعكس واقعا مهولا، يشيئ الإنسان ويحيله إلى لعبة في يد قوانين القمع والتسلط.
- ما الهزل والضحك الذي تشيعه النكتة إلا ستارا ناعما يفضح هزيمة الإنسان.
- رغم إمعانها في إثارة الضحك طلبا للترفيه إلا أنها تنم عن وعي بالواقع وإشكالاته لتضعنا في مفرق التساؤل والتأمل بعد الانتهاء من عملية الضحك.
- النكتة نص يدمر مضمونه شكله، بحيث يتحول كل نص نكتة إلى خطاب نقدي يثير المسألة ويمارس فضخ الواقع وتعرية السلوك المشين
- النكتة بالقدر الذي تسليك وتمتعك تضعك في مواجهة تهافتك وهشاشة ذاتك أمام سلطة الواقع المرير فيغدو الضحك حينئذ سلوكا انتقاميا.
- النكتة خطاب ساخر مشحون بطاقات كلامية وتكثيف رمزي، يكشف عن صراع الثنائيات الضدية: (الرجل والمرأة، المركز والهامش، الأنا والآخر)
- رغم أن النكتة لا تفصح عن هاجسها، فإن تأويلها يبدي جدلا بين واقعين؛ واقع مثالي تتطلبه القيم والمثل، وآخر تفرزه مطبات الحياة.
- وهنا تتجلى سلطة النكتة إذ تغدو فضاء للفتنة والحيرة واللبس، ولكنها في تجلٍ آخر لها تتماهى مع تفاصيل الواقع.
- تنزل إلى الواقع وتسخر منه، لكن لا لتقبع في ابتذاله وإنما تعري الواقع المرير.
- النكتة خطاب يضحك الناس ليبكيهم، ويبرهم ليخدعهم، لأنها تفضح تراجيدية الواقع من خلال ما تشيعه من سخرية واشتغالها على آلية المفارقة، التي تتمظهر وفق مستويين؛ فقد تكون سلاحا للهجوم الساخر وقد تكون ستارا يخفي هزيمة الإنسان، و من ثمة فإنها نص يمارس لعبة البوح والسكوت.

الهوامش:

¹ ابن منظور: لسان العرب، ج2، ط3، دار صادر للطباعة بيروت، د ت، ص 100
² الفراهيدي: العين، ج5، تر: عبد الحميد هندواوي، د ط، دار الكتاب العلمية، بيروت. د ت، ص 339.
³ ينظر: الرمخشي: أساس البلاغة" ج2، تر: محمد باسل، د ط، دار الكتب العلمية، بيروت. د ت، ص 302.

- إبراهيم نبيلة: أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ط2، دار نهضة مصر، القاهرة، ص 230⁴
- ⁵. المرجع نفسه، ص 230.
- ⁶. الجاحظ أبو عمرو بن بحر (2003): البخلاء: البخلاء، د ط، تر: طه الحاجري. دار المعارف، الاسكندرية، ص6.
- ⁷. المصدر نفسه، ص 6.
- ⁸. ينظر: شايب حمد(دت) الضحك في الأدب الأندلسي، دراسة في وظائف الهزل وأنواعه وطرق اشتغاله، د ط، دار أبي رقرق، ص5.
- ⁹. هنري برغوسون(دت): الضحك، تر: علي مقلد، المؤسسة الجامعية للنشر. د ط، بيروت، ص 93.
- ¹⁰. المرجع نفسه، ص 98.
- ¹¹. هنري برغوسون، الضحك، ص 64.
- ¹². عبد السلام عبد العالي(2013): السخرية ومسألة الحقيقة، مجلة الدوحة. وزارة الثقافة والفنون، ع 70. ص 31.
- ¹⁴. إبراهيم عبد الله (2000) السردية العربية"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. ص55.
- ¹⁵. شعلان عبد الوهاب: السرد العربي القديم البنية السوسيوثقافية والخصوصيات الجمالية، منتديات ستار تايمز. <https://www.startimes.com>
- ¹⁶. المرجع السابق.
- ¹⁷. شادلي مصطفى(دت): السخرية والهزل في التراث الشفاهي، د ط، منشورات كلية الآداب، الرباط، المغرب، ص 77.
- ¹⁸. المرجع نفسه، ص 86.
- ¹⁹. ينظر: المرجع نفسه، ص 86.
- ²⁰. شادلي مصطفى، الهزل والسخرية في التراث الشفاهي، ص88.
- ²¹. بورقية رحمة(1997) الدولة والسلطة والمجتمع، د ط، دار الطليعة، بيروت، ص11.
- ²². هنري بركسون: الضحك ص35.
- ²³. ينظر: إبراهيم عبد الله(2005): المطابقة والاختلاف، د ط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. ص55.
- ²⁴. عليوب سينيا (2003): بيان حد بين الهزل والجد، دراسة في أدب النكتة. د ط، دار المدى للثقافة. بيروت، ص281.
- ²⁵. المرجع نفسه، ص 212.
- ²⁶. ينظر: إبراهيم عبد الله، المطابقة والاختلاف، ص15.
- ²⁷. الغدامي عبد الله(2004): النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، د ط، دار الفكر، سوريا. ص72.
- ²⁸. سورة يوسف، الآية 28.
- ²⁹. الغدامي عبد الله (2005) المرأة واللغة، ط3، المركز الثقافي. المغرب، ص 5.
- ينظر شادلي مصطفى " السخرية و الهزل في التراث الشفاهي ص 78³⁰
- ³¹ للمزيد ينظر سيغموند فرويد " النكتو علاقتها بالاشعور(1905) دار حواديت للنشر.
- شادلي مصطفى " السخرية و الهزل في التراث الشفاهي " ص 84³²
- شاكور عبد الحميد" الفكاهة و الضحك" عالم المعرفة عدد299، الكويت، يناير2003. ص. 388³³
- الشريف الجرجاني " التعريفات". دار الفكر، بيروت1997. ص. 180³⁴
- ³⁵. شادلي مصطفى، الهزل والسخرية في التراث الشفاهي، ص88.